مُهِمَّاتٌ تربويَّة

رمضان ١٤٤٦ من الهجرة النبوية

تقديم

أنا هيد بنت عيد السمبري

غفر الله لها ولوالديها

بسم الله الرحمن الرحيم

تقدّم لكم مدوّنة (عِلْمٌ يُنْتَفَعُ بِهِ) تفاريغ من دروس الأستاذة الفاضلة

أناهيد بنت عيد السميري حفظها الله

ونسأل الله أن ينفع بها.

https://anaheedblogger.blogspot.com

تنبيهات هامة:

- منهجنا الكتاب والسّنة على فهم السّلف الصالح.

- هذه التّفاريغ من عمل الطّالبات ولم تطّلع عليها الأستاذة حفظها الله.

- الكمال لله -عزَّ وجلَّ-، فما ظهر لكم من صواب فمن الله وحده، وما ظهر لكم من خطأ فمن أنفسنا والشّيطان، ونستغفر الله.

والله الموفّق لما يحبّ ويرضى.

اللقاء الرابع يوم الثلاثاء 4 رمضان

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبيّنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

نحمد الله حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه، ونسأله بمنّه وكرمه أن يجعل القرآن الكريم ربيعًا لقلوبنا، ونورًا لصدورنا وجلاء لأحزاننا وهمومنا، اللهم آمين.

من الأمور العظيمة والمعاني المهمة في التربية التي نأخذها وننتزعها من كتاب الله: التصورات الصحيحة عن الإنسان، مَن أنا ومن أين أتيت، ماذا أريد، كيف السبيل؟ وأيضًا القضايا المهمة التي يرجوها الإنسان أو يخاف منها، كيف يوازن بينها، ماذا سيحدث لو فعل كذا، أو قابل كذا أو وقع له كذا؟ وهذه الحقيقة من الأمور التي يجب أن نعتني بها من أجل أن نكون في عافية من ديننا، فإن من أسباب العافية:

- أن يعرف الإنسان طريقه الذي يسير فيه.
- وأن يعرف من يصلح أن يكون قائدًا له.

- وأن يعرف كيف يقود غيره إذا تعرض لشيء مثل هذا.

فالإنسان لا بد أن يكون قائدًا ومَقُودًا، مرشِدًا ومُرشَدًا على حسب دوره في الحياة وعلى حسب علاقاته. وهذه إضاءة لهذا الموضوع من خلال كلام رب العالمين، وهذه مهمة من المهمات التربوية الخطيرة، نتأمل سويًا في سورة آل عمران الآية (79)، ننظر لهذه الآية وننظر لجملة من هذه الآية ونرى بركاتها في إرشاد الناس إلى الصواب:

(مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِّي مِن دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ)

نرى في هذه الآية الكريمة أحد الإرشادات المهمة، التي ترشدنا كيف نميّز بين الحق والباطل، وكيف يكون شأننا حين نكون نحن القواد، أو كيف يكون شأننا في تمييز من نقبل ومن لا نقبل منه.

من أجل فهم هذه الآية الكريمة وفهم المهمة التربوية من خلالها، نقرأ شيئًا من تفسير ابن كثير في هذه الآية، فقد أورد بسنده:

عن ابن عباس قال: "حين اجتمعت الأحبار من اليهود والنصارى من أهل نجران، عند رسول الله -صلَّى الله عليه وسلَّم- ودعاهم إلى الإسلام -قالوا له- أتريد يا محمد أن نعبدك كما تعبد النصارى عيسى ابن مريم؟

فقال رجل من أهل نجران نصراني يقال له الرئيس: أوذاك تريد منا يا محمد، وإليه تدعوننا؟ أو كما قال.

فقال رسول الله -صلَّى الله عليه وسلَّم-: «معاذ الله أن نعبد غير الله، أو أن نأمر بعبادة غيره، ما بذلك بعثني، ولا بذلك أمرني.» أو كما قال -صلَّى الله عليه وسلَّم- فأنزل الله عزَّ وجلَّ هذه الآية.

فقوله: (مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِّي مِن دُونِ اللَّهِ) أي: ما ينبغي لبشر آتاه الله الكتاب والحكم والنبوة أن يقول للناس: اعبدوني من دون الله. أي: مع الله، فإذا كان هذا لا يصلح لنبي ولا

لمرسل، فلأن لا يصلح لأحد من الناس غيرهم بطريق الأولى والأحرى، -يعني إذا كان هذا منهيًا عنه عند الأنبياء والمرسلين، فمن باب أولى أي أحد غير هؤلاء الكرام على الله لا يمكن أن تكون وظيفتهم ودورهم أن يدعوا الناس لعبادتهم.- ولهذا قال الحسن البصري: لا ينبغي هذا لمؤمن أن يأمر الناس بعبادته.

قال: وذلك أن القوم كان يعبد بعضهم بعضًا -يعني أهل الكتاب- كانوا يتعبدون لأحبارهم ورهبانهم، كما قال الله تعالى: (اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ]) [التوبة: 31].

فالجهلة من الأحبار والرهبان ومشايخ الضلال يدخلون في هذا الذم والتوبيخ، بخلاف الرسل وأتباعهم من العلماء العاملين، فإنما يأمرون بما أمر الله به، وبلغتهم إياه رسله الكرام. إنما ينهونهم عما نهاهم الله عنه وبلغتهم إياه رسله الكرام. فالرسل، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، هم السفراء بين الله وبين خلقه في أداء ما حملوه من الرسالة

وإبلاغ الأمانة، فقاموا بذلك أتم قيام، ونصحوا الخلق، وبلّغوهم الحق."

هذا ما نعتقده في الرسل، أنهم ما كان منهم أبدًا تعظيم لأنفسهم، وسنرى بعدما نفهم الآية إجمالًا ما هي المهمة التربوية التي نربي أنفسنا ونربي الأجيال التي تحت أيدينا عليها.

"وقوله: (وَلَٰكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ) أي: ولكن يقول الرسول للناس: كونوا ربانيين. قال ابن عباس وأبو رزين وغير واحد، أي: حكماء علماء حلماء.

وقال الحسن وغير واحد: فقهاء، وكذا روي عن ابن عباس.

وعن الحسن أيضًا: يعني أهل عبادة وأهل تقوى."

لو سألنا: ما هي خطتي في تربية هذا الذي أربيه؟ جاءت هذه الآية ترشد إلى ذلك، (وَلَٰكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ) لكن بأي طريقة يكون الإنسان ربّاني؟ سيأتينا تفصيل أكثر، إن شاء الله.

"وقال الضحاك في قوله: (بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ) حق على من تعلم القرآن أن يكون فقيهًا: (تُعَلِّمُونَ) أي: تفهمون معناه. (وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ) تحفظون ألفاظه."

هذه المعاني للكلمات ويأتينا بيان أكثر لذلك. الآن عرفنا هذه المهمة التربوية، وهي:

- أن عندنا خطة لسير أنفسنا ولسير من نربي.
- وعرفنا أن المطلوب منا أن نصل إلى هذه الصورة، نصل إلى هذه الحالة، نصيغ خططنا على أساس هذا الهدف.

ولذا سنجد في كلام المفسرين ما يساعدنا على فهم هذا الهدف أكثر، ونحتاج أيضًا أن نحذر من ضد هذا الهدف.

أولًا: نسير في مسار صياغة خطة للمتربين.

ثانيًا: نسير في مسار صياغة خطة للمربين.

أنا أربي مَن تحت يدي، أو حتى أربي نفسي، ما هو الأمر المهم؟ ما هي الخطة؟ هذه الخطة مبنية على معرفة الهدف.

ما هو الهدف؟ (كُونُوا رَبَّانِيِّينَ)، من معانيها: مخلصين للرب، متعبدين له.

وأيضًا من معانيها: أن الربانيين -كما ذكر ابن كثير-: علماء حكماء حلماء، معلمين للناس، مربين لهم.

فكأن الخطة مبنية على هذا الهدف: أن يكون الجيل الذي بعدنا ربّاني، والرباني: المخلص لله المتعبد له، والرباني: العالم الحكيم الحليم، ويمكن أن يكون الرباني هو: الذي وصل في إخلاصه لربه أن يفهم معنى أنه لله، خلقًا وتدبيرًا وقصدًا وإرادة، وأنه بالله، يعينه ويساعده ويعطيه الحول والقوة، فيكون هذا الرباني مشغولًا بربه، مشغولًا برضاه، راغبًا في أن يلقاه وهو راضٍ عنه.

(كُونُوا رَبَّانِيِّينَ) تابعين طريق الرب -سبحانه وتعالى- مخلصين له، راغبين فيما عنده، تعلمون أن رضاه هو الغاية فتشغلون أنفسكم بذلك.

هذا هو هدف الخطة: أن نصيغ شخصية تكون ربانية، هذه هي المهمة التربوية، وهذه الشخصية الربانية هي التي ستكون في عافية من دينها.

كيف سنصيغ شخصية ربانية؟ إذا كان هذا الهدف، فما هي الوسيلة؟

رب العالمين ذكر لنا الوسيلة في هذه الآية: (كُونُوا رَبَّانِيِّينَ)، والوسيلة إلى ذلك: (بِمَا كُنتُمْ)، بهذا السبب ستكونون ربانين، بكونكم تتعلمون صغار العلم قبل كباره وبكونكم عاملين بذلك، الباء هنا باء السببية. سيصل أن يكون من تربي رباني بهذه الوسيلة، بهذا السبب؛ لذلك إذا أراد أحد اختراق أمة وإفساد مجتمع دخل لهم من باب العلم والدراسة، وهنا رب العالمين يبين لنا أن هذه هي المهمة العظيمة، ولا زلنا في خطة نضعها للمتربين، كأننا كلنا مربين ونضع خطة للمتربين، فنحن نريد صياغة شخصية ربانية، هذه الكلمة الواضحة القرآنية، ما معنى (رَبَّانِيِّينَ)؟ مخلصين للرب، متعبدين له، يعلمون أنهم لله وبالله، على طريق الله، راغبين في رضاه.

كيف نصل إلى هذه الشخصية؟ العلم والتعليم والدراسة، توصل أن يكون صاحبها ربانيًا، فلا بد أن يكون تعليمه ودراسته أمرًا يوصله إلى هذا الهدف، يكون تعلُّمُه هو لله مخلصًا، ويتعلّم عن الله، ويتعلّم بالله استعانة. وهذا العلم لا بد أن يكون

فيه دراسة. ما معنى أن يكون فيه دراسة؟ أليس العلم هو الدراسة؟ العلم كأنه المعلومات التي يجمعها الإنسان، ثم تأتي الدراسة فتكون عبارة عن حفر لهذه المعاني، تكون عبارة عن وضع لهذه المعاني في الفؤاد، مناقشتها، فهمها؛ لأن مادة (دَرَسَ) في كلام العرب تحوم حول معاني التأثر من تكرار عمل يُعمل في أمثاله؛ ولذلك تقول العرب: "درست الريح رسْم الدار"، أتت الريح بتكرار حتى مسحت معالم الدار؛ لذلك يقال: "منزل دِرَاس، وثوب دِرَاس"، أي: لُبِس بتكرار حتى تمزق، ومن ذلك يقولون: "درس الكتاب" إذا قرأه بتمهل لحفظه وتدبره. وفي الحديث: «ما اجتمَعَ قومٌ في بيتٍ من بيوتِ اللَّهِ يتلونَ كتابَ اللَّهِ، ويتدارسونَهُ فيما بينَهم إلَّا نزلَت عليهِم السَّكينةُ»[1] ، فهم يتلون ويتدارسون، عطف التدارس على القراءة فعُلِم أن الدراسة أخصّ من القراءة؛ لذلك سموا بيت قراءة اليهود ودراستهم "مِدْراسًا" وفي الحديث أن النبي -صلَّى الله عليه وسلَّم- خرج في طائفة من أصحابه فأتى مِدراس اليهود فقرأ عليهم القرآن ودعاهم.

---

[1] () أخرجه مسلم (2699).

فمادة (دَرَسَ) تستلزم التمكن من المفعول، الريح تمكنت من الدار فمحت آثار الدار، فيصبح معنى الدراسة، (وَلَٰكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ): إشارة إلى فهمه وإتقانه وتصوره، فيتعلم الإنسان فيعرف المعاني ويفهمها ويكررها ويتقنها، فتعطيه تصورًا عن الحياة، ويتصرف من خلالها، فهذه الطريقة هي التي ستوصلنا إلى صياغة شخصية ربانية. ومن هنا ننظر إلى خطة المعلمين، فالموضوع ليس باليسير، لا تتصور أن الذي يعلّم الكتاب هو الذي يدرّس الناس، نحن نستعمل كلمة (يدرّس) في مكان (يعلّم) وفي اللفظة القرآنية والعربية، الدراسة كما ذكرنا. بهذه الطريقة نحن خاسرون ثلاثة أمور أساسية: وهي:

- أن نتعلم عن الله.
- ونتعلم لله.
- ونتعلم بالله.

أما نتعلم لله: فإن الآباء والأمهات، بالإضافة إلى المجتمع وبالإضافة إلى الضغوط العامة، تُكلمنا عن سوق العمل ولا

تُكلمنا عن أن هذا العلم لله؛ لذلك اختلط الموضوع بين العلوم والفنون، وأصبح الناس يتعلمون الحرفة، أو يتعلمون الصناعة، ولا يعابون على هذا، لكن ليس هذا هو العلم الشريف الممدوح الذي به سأخرج إنسانًا ربانيًا. إنما العلم هو أن يجتمع الناس في بيت من بيوت الله، يتلون كتاب الله ويتدارسونه، فهذا شأنه آخر، لا بد أن يكون مقصده لله، لكن العلوم الدينية يتعلمها الناس للدنيا، من أجل أن يرقى وظيفة أو أن يعمل عملًا أو أن يحصل على شهادة، وهذا مرئي ومسموع ومعروف ومشهور، والناس اليوم لا يحتاجون على ذلك أمثلة، فكم حفظ القرآن من لا يصلي، وكم تعلّم في كليات شرعية من لا يقيم لحدود الله ولا لحقوق الله تعظيمًا! فهذا أمر واضح. فلا لله درسوا، ولا عن الله درسوا، ولا بالله استعانوا في دراستهم، وهذا فيه استثناءات كثيرة، الحمد لله، لكن الوضع العام هو ذاك.

فالخطة لكي نُخرج ربانيين لا بد أن تكون بهذه الصورة. ولا زلنا نقول: أن يُتقن الإنسان مهنة وعمل، فهذا مما تدعو إليه الشريعة وهو من محاسن هذا الدين ويؤجر الإنسان

عليه، لكن صياغة شخصية الإنسان غير صياغة الأعمال المهنية التي يقوم بها، نصيغ شخصيته ربانيًا، فأينما كان، كان ربانيًا مباركًا. فالمعلم الذي يعلّم تعليمًا نظريًا جدليًا، هذا اليوم أفسد أكثر مما أصلح، وفي الأصل اليوم قامت الكتب والأجهزة والأدوات الذكية، بدلًا عنه، فبدلًا من أن يسأل المعلم، يستطيع أن يسأل هذه الأدوات. لكن المعلم الذي نريد أن نصيغه هو أولًا، لكي يعلم هؤلاء هذا الحق، هذا هو الذي عليه مدار الكلام.

وإذا نظرنا إلى السيرة النبوية وجدنا كيف كان الرسول -صلَّى الله عليه وسلَّم- يعلم الناس تعليمًا مقرونًا بالتربية، مصحوبًا بها. وإذا تأملنا في سيرة الخلفاء الراشدين وجدناهم كذلك. وانظر كيف كان عمر -رضي الله عنه-، حتى العقوبات يتعامل معها معاملة خاصة، لأنه يريد أن يربي الناس، ففي عقوبة الخمر جعلها ثمانين جلدة ليردع الناس. وفي مسألة الطلاق كان حكمه أن من طلق ثلاثًا في موطن واحد لا يعود إلى زوجته، كان يريد أن يربي الناس، فالمعلم ليس الذي يملأ أذهان الناس معلومات، المعلم الرباني هو

الذي يملأ أفكارهم وأذهانهم حقائق وأخلاق، ويجعل العلم مطبوعًا في نفوسهم، من طبعهم.

وهذا يذكرنا مرة أخرى بنبينا -صلَّى الله عليه وسلَّم- كان خلقه القرآن، وهذا أمر ليس مستحيلًا، نعم، لا يمكن أن يصل أحد إلى درجة النبي -صلَّى الله عليه وسلَّم-، لكن هذا طريق مفتوح على الخلق أن يسيروا فيه. وفي اللقاء الذي مضى ذكرنا أن الناس يستطيعون أن يقولوا إن هذا خُلقه الفلسفة الفلانية أو العلانية، هذا خُلقه كتاب فلان الفيلسوف الرأسمالي، وهذا خُلقه كتاب فلان الفيلسوف الشيوعي! يصبح خُلقه وطبعه وتفكيره وإرادته وتوجهه كله منصهر، منسجم مع هذا الفكر الذي تبناه. فعلى ذلك سنأتي للمعلمين ونراجع معهم نيّاتهم في هذا العلم، نيّاتهم وقت تحصيلهم ونيّاتهم وقت تعليمهم. هل هؤلاء المعلمون وقت تعليمهم كانوا هم بنفسهم ربانيين، علماء، حكماء، حلماء؟ وهذه الآن الخطة للمعلمين، هل هم بنفسهم يفكرون، مشغولون دائمًا بالعلم، غير منفصلين عنه؟ هل هم مشغولون بتقريب المعاني، حتى أنهم حين يمر عليهم أي أمر في الدنيا، أي

موقف يحصل لهم، يجدون أنفسهم يربطونه بأي علم تعلموه، ويجدونها فرصة لتقريب هذا العلم للمتعلمين؟ وأهم من هذا: هل هم يعرفون الله في أحوالهم، يعرفون الله بأسمائه وصفاته ويعاملونه في كل أحوالهم، ما استطاعوا إلى ذلك سبيلًا؟ نحن لا نستطيع الكمال، لكن هل هذا الطريق هو المسلوك؟ هل الأيام والليالي على المعلمين تساعدهم على معرفة رب العالمين؟ هل هم يزدادون علمًا عن الله، فيزيد الطلاب علمًا عن الله؟ هل هم عاشوا صراع الإخلاص وذاقوا حلاوة الإخلاص ومرارة الالتفات لغير الله فنقلوا هذه المعاني لمن يربون؟ هل فكروا وانشغلوا كيف يوصلون هذه المفاهيم، فيعطون الطلاب صغار العلم قبل كباره؟ وهل هم في كل هذه الأحوال بالله مستعينين، وعليه متوكلين، وله راغبين. هل قضوا نهارهم في التعليم وليلهم في الدعاء للمتعلمين؟

تعليم الجيل شأن عظيم، فلا بد أن تحصل مراعاة لحال المعلمين الذي تبنوا هذا الأمر، ومن هنا يأتي الكلام عن الأمهات اللاتي يربين أبنائهن، وليس شرطًا الأمهات، بل كل من تعرض لموضوع التربية، ووجد في قلبه حرارة، فهذه

الخالة وهذه العلمة، وهذه الجارة كل هؤلاء يمكن أن أكون أنا المرشد المعلم لهم.

فهذا الأمر يتطلب منا أن نكون ربانيين، مشغولين برب العالمين، راغبين في رضاه، مستعينين به، سبحانه وتعالى. هذه الآية دلت على أن العلم والتعليم والدراسة مؤشر صحتها: أن يكون الإنسان ربانيًا، فمن اشتغل بالتعلم والتعليم وليس هذا مقصده يُخشى عليه؛ لذلك نقول "نعوذ بالله مِن عِلمٍ لا ينفَعُ، ومِن قَلبٍ لا يخشَعُ".

فنهاية هذا الكلام أنه لا بد أن تكون هناك صياغة جديدة نقوم بها على قدر استطاعتنا، من المهمات التربوية أن نخرج أشخاصًا ربانيين، متعلمين ومعلمين لأن هذا المتعلم الرباني غدًا هو سيكون المعلم، وصفات هؤلاء المعلمين الربانيين واضحة؛ هم لله يعلِّمون، وعن الله يعلِّمون، وبالله يستعينون للتعليم. ولذا يتيسر لهم أن يكونوا حلماء مع علمهم -لأنه لا بد أن يكونوا حلماء- ويتيسر لهم أن يكونوا حكماء، كما قال ابن عباس: "علماء، حكماء، وحلماء." هذا هو المعلم وهذه هي الغاية للمتعلمين:

- أن يصلوا أن يكونوا علماء، وعلامة العلم: معرفة الله.

- وأن يكونوا حكماء يضعون الأشياء في مواضعها بعد أن حصل لهم تصور حقيقي عن الحياة، فتجدهم يتخذون قرارات سليمة ويمارسون أخلاقًا صحيحة، وإذا أخطأوا يعودون إلى رب العالمين ويستغفرون، اللهم اغفر لنا وتب علينا.

- وأن يكونوا حلماء فلا يتعجلون لا على أنفسهم ولا على الخلق حولهم، لا المسلمين منهم ولا الكافرين، بل تجد جهودهم في الإصلاح عظيمة.

ولصياغة هذه الخطة لا بد من أمر مهم وهو: أن تكون علاقتنا بالقرآن والسنة صحيحة، فيرى هذا المعلم أنه بحاجة للقرآن، بحاجة لسنة النبي -صلَّى الله عليه وسلَّم-، ويرى هذا المعلم أنه مستغنٍ بالقرآن عن أي مناهج وعن أي أفكار. فإذا شعر بالحاجة للقرآن ووجد في قلبه الاستغناء به عن غيره، استطاع أن يصيغ شخصية ربانية، يصيغ شخصيته هو ويصيغ شخصية من ورائه. بل سيجد أنه من اليسير أن يلفت

نظر هؤلاء المتربين لكل شيء حولهم في الكون. بالعلم هذا لن ينفصلوا عن الكون، بل سيكون اتصالهم بالكون اتصالًا عظيمًا، وستكون معرفتهم به معرفة منطلقة من الأصول، وقد ورد عن أحد الصحابة أنه قال: "لقدْ تَرَكَنَا رسولُ اللهِ -صلَّى الله عليه وسلَّم- وما يُحَرِّكُ طائِرٌ جَنَاحَيْهِ في السماءِ، إلَّا ذَكَّرَنا منه عِلْمًا!" فاين ذهبت هذه الأخبار؟! وأين العناية بها؟! فلو كنا نشعر بحاجتنا للقرآن ونشعر أن القرآن فيه غنوة عن كل المناهج، ومن خلاله ننطلق للنظر إلى كل شيء، وأن سنة النبي -صلَّى الله عليه وسلَّم- تكفينا لمعرفة كل شيء نحتاجه، وأن الأصول موجودة هنا، وأي شيء نريد أن نستفيد منه سنستفيد منه بمنطلق إسلامي، بمنطلق إيماني، بمنطلق رباني؛ وقتها سيصل الناس إلى إصلاح أنفسهم، وإصلاح مجتمعهم بجهود من المعلمين، وبجهود من المربين، يصدون فيها الشر عن التعليم، ويخلقون بيئات جيدة للوصول إلى الربانيين.

يبقى علينا في هذا الشأن أمرين:

الأمر الأول: أن نقول ما هي الخطة العملية لهذا المعلم؟

أقبل على كتاب الله بالشعورين الذين اتفقنا عليهم:

- إنك محتاج إليه ومستغنٍ به عن غيره.

- وتعرف على الله من خلال كتاب الله ومن كلام رسول الله -صلَّى الله عليه وسلَّم- وادرس الكتاب دراسة المحتاج الذي يريد أن يصلح هذه المشكلة وهذه المشكلة.

ولذا نذكر أنفسنا أن في حديث النبي -صلَّى الله عليه وسلَّم- في دعاء الهم والغم، نسأل الله أن يجعل القرآن ربيع قلوبنا؛ لأنه يزرع في داخلنا تصورات تصلح نظرنا حتى للمصائب والبلاءات.

الخُطة أن تقبل على كتاب الله وأنت تشعر بالحاجة إليه والاستغناء به عن غيره، وتعلّم عن الله وابحث عن كل ما تريد من خلال كتاب الله، ومن خلال سنة رسول الله -صلَّى الله عليه وسلَّم-، وهذا كله والقلب متعلق بالله، أن علّمنا، فهّمنا، اجعل القرآن ربيع قلوبنا، اكشف لنا عن أسرار كتابك. وينهج في ذلك أن يسأل العلماء ويبحث عمن يفهم منه

كلام الله، وهذه مسألة تحتاج إلى تخطيط وفهم ودقة، لكن هذا مجملها.

الأمر الثاني: هذه الآية تجعل عند المعلمين والمتعلمين أداة للتمييز، معيارًا صحيحًا، من هو المعلم الرباني الذي سآخذ منه؟

لأني حين أريد أن أفهم كلام الله سأتعلّمه من أحد، فمن هو هذا المعلم الرباني، الآية بشقيها تبيّن ذلك.

الشق الأول في الآية كان واضحًا فيه، كما قرأنا في كلام ابن كثير: أن هناك من البشر من يريد أن يعظم نفسه، من يريد أن يطغى على غيره، من يريد أن يستعمل هذا العلم كأداة للارتفاع على غيره. الطغيان والعلو آفة عظيمة يمكن أن تدخل إلى قلوب الخلق وهم لا يشعرون، وتجدهم يمارسون العلو والطغيان ولو كانوا متعلمين، ولو كانوا معلّمين، ولو كانوا طلبة علم، ولو كانوا مشايخ، إلا من يعصمه الله. وهذا الأمر ظنه النصارى الذين في وفد نجران، واليهود الذين كانوا في المدينة وأتوا إلى هذا الاجتماع، كما قرأنا في كلام ابن كثير، من وهمهم؛ لأنهم اعتادوا على أن

الدعوة وخطاب الناس إنما يصدر عندهم من أناس يريدون منهم أن يعبدوهم، فاتهموا النبي -صلَّى الله عليه وسلَّم- بذلك، قالوا: "أتريد أن نعبدك؟" حاشاه -صلَّى الله عليه وسلَّم- لكنهم لا يفهمون إلا هذا الأمر.

هذا يمكن أن يكون في أي مكان، في أي موضع، يمكن للإنسان أن يبتدئ ربانيًا، يريد وجه الله، ثم ينتهي طاغية يريد أن يكون الناس أتباعًا له وأتباعًا لرأيه. وتجده يمارس هذا على أناس يمكن أن يكونوا ضعفاء في عقلهم، أو وقعوا في أي شأن من الشؤون في حبه أو الاقتناع به، أو أي شأن من هذا. فيا لها من مسألة خطيرة لا ينجّي منها إلا رب العالمين. فننظر هنا أن هذا معيار لصحة السير، لا تقل: "لا أعرف ممن آخذ!" راجع كل من علّمك عن الله ودعاك إلى الله ولم يقف بينك وبين الله، ولم يجعل نفسه واسطة لك مع الله، وإنما ردك إلى الله، وعلقك بالله، وتركك مع الله، وأرشدك إلى الله، وعلّمك عن الله، وأرشدك أن تتبع رسول الله -صلَّى الله عليه وسلَّم-، فإن مثل هؤلاء علامة الصحة ظاهرة عندهم. وهذا لا يعني أن ما يقوله لا يمكن أن يكون

خطأ، فالخطأ من مثل هؤلاء شأنه خطأ الناس جميعًا، لكن المقصد: الحذر من أولئك القوم الذين يجعلون لأنفسهم طريقة، ويجعلون لأنفسهم رسومًا وأعمالًا ما أنزل الله بها من سلطان، ويجعلون لأنفسهم أورادًا ما تكلم بها النبي -صلَّى الله عليه وسلَّم- ولا أمر الله بها.

فهذه الآية فيها هذه المهمة التربوية الخطيرة: لا تنظر للناس على أساس دول وأقاليم، لا تنظر لهم كما يريد الشيطان لك أن تنظر لهم، انظر لهم وأنت ترى هذا المقياس؛ هؤلاء يعظمون أنفسهم، يريدون أن يعظمهم الناس، تجد فيهم نَفَس الكبر والاستعلاء، تحدهم يرون أنفسهم أنهم على صواب مطلق، وغيرهم على خطأ مطلق، وإن كانوا يشتركون معهم في الحق، وفي الدعوة على الله وفي الدعوة إلى التوحيد، وفي الدعوة إلى كتاب الله، هنا يكمن الخطر.

ما يكون الإنسان في عافية من دينه إلا إذا كان مقصده أن يكون ربانيًا، وأن يتعلم الكتاب ويدرسه حتى يكون نظره لكل شيء من خلال هذا الكتاب. وهذه خطة عمر يعيشها الإنسان إلى أن يموت، فيصاحبه هذا الكتاب في قبره، ويوم يُبعث

عند ربه، ويوم يتقاسم الناس المنازل في جنات النعيم. لكن يجب أن تكون هذه الخطة ظاهرة واضحة، يجب أن تكون كلمتيّ: (التعليم) و(الدراسة) واضحة، كيف أننا نريد أن نملأ الأفكار والأذهان والتصورات بهذه المعلومات، تصبح ليست معلومات يستطيع حتى الذكاء الصناعي أن يتكلم بها، إنما تصورات في الفؤاد ينظر الإنسان من خلالها للحياة.

ومن المهمات التربوية أيضًا اللاحقة بهذه الآية: أن تعرف بالإجمال تأخذ ممن وتترك من، فكل من كان ربانيًا معظمًا لله، نازعًا من كتاب الله ومن سنة رسول الله، ما يدعو الناس أن يشركوا بالله أو يعظموا غير الله، أو يتجهوا لغير الله أو أن يكون بينهم وبين الله واسطة، فاعلم أنه في الإطار الصحيح. ثم كلما ازددت فهمًا للأمر كلما استطعت أن تميز. وما كان لله بقي وما كان لغيره ذهب. وفي قصة لطيفة للإمام مالك -رحمه الله-، كان في زمانه الناس في شرق الأرض وغربها ممن دخل في الإسلام واشتهر عندهم العلم، كانوا يكتبون الموطآت، فقيل للإمام مالك: "على ماذا تكتب؟ كثرت

الموطآت"، فقال لهم: "ما كان لله بقي"، فبقي موطأ الإمام مالك وذهبت الموطآت الأخرى، والله أعلم بأصحابها.

فعلينا أن نجعل كلمة (رَبَّانِيِّينَ) أمام أعيننا كمهمة تربوية، فنخرج بأبناء إذا سألوا، سألوا الله، وإذا خافوا لجأوا لله، وإذا احتاجوا كان الله ملجأهم، وإذا اهتموا أو اغتموا طلبوا الله واستغفروه وتابوا إليه. ربانيون يتصورون حقيقة الأحداث التي تدور حولهم، ربانيون يتحملون هذه المسؤولية؛ الأمانة التي عُلّقت في رقابهم، أن يقوموا بدين الله في أرض الله، وأن يصلحوا ما استطاعوا. اللهم اجعلنا وذرياتنا ربانيين، واحفظ المسلمين من الاختراق في العلم والتدريس، واجعلنا، يا رب العالمين، ممن نجا في الدنيا من الفتن، وفي الآخرة من العقوبة، اللهم آمين.

سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد ألا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك.